الشوق والحنين
إلى الحرمين

د . محمد موسى الشريف

الطبعة الأولى

١٤٣١هـــ – ٢٠١٠م







جدة / هاتف: [illegible]
/ فاكس: [illegible]
الرياض / هاتف: [illegible]
/ فاكس: [illegible]
التوزيع / [illegible]

المكتبات: حي العلامة
هاتف - فاكس: [illegible]
حي الثغر - شارع باخشب
هاتف [illegible] - فاكس [illegible]

البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب: [illegible] جدة [illegible]





بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

` _ ^] \ [Z Y X W [

m l k j i h g f e d c b a

.Z n

وقال محمد بن الطيب الشرفي الفاسيّ المالكي المتوفى سنة ١١٧٠ بالمدينة المنورة رحمه الله تعالى:

ألا ليت شِعْري هل أرى البيت مَعْلَماً
وهل أَرِدَنْ يوماً على الرِيّ زمزما

نطوف بذاك البيت طوراً وتارة
نَلُمُّ بهاتيك البقاع فنَلْثُما

وطوراً نصلي ثم نسعى إلى الصفا
لنُصْفي الفؤاد المُسْتهام المُتَيّما

ونسرع كي نلقى المنى ولدى مِنى
نخيم فيمن كان لليُمْن خَيّما

ويا ليت شعري هل أرى طيبة التي
بها طابت الأكوان نجداً وأَتْهُما(١)



---

(١) "سلك الدرر": ٤/ ٩٣،٩٤.



مُقَدِّمَة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين سيدنا محمد النبيّ الأميّ الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنَّ الرحلة إلى حج بيت الله تعالى الحرام رحلة إيمانية ليس لها نظير، والناظر إلى الحجاج وأثر الحج عليهم يعلم تمام العلم مقصداً من مقاصد الشرع المطهر في فرضه الحج على الناس إذ أنَّ أكثر الحجاج ينطبع في نفوسهم من الهيبة والوجل من الإقدام على الكبائر بعد الحج الشيء الكثير، وينصلح حال كثير منهم، وهذا من فضل الله تعالى وجوده وكرمه سبحانه.

هذا وقد جعل الله تعالى في قلوب المسلمين أجمعين الشوق والحنين إلى هذا البلد الأمين، ولتلك البقع المباركة، والمشاهد الفاخرة، والأماكن الطاهرة، ويتمنى الواحد منهم وهو في أقاصي الأرض أن تكتحل عيناه برؤية بيت الله العتيق ومكة وعرفات ومنى ورؤية مدينة حبيب رب العالمين عليه وعلى سائر المرسلين أفضل الصلوات والتسليم، بل إن من حج منهم يتمنى أن يعود مراراً إلى هذا البيت العتيق، وهذا الشوق والحنين في الحقيقة هو

سر من أسرار الله تعالى في خلقه، وسبيل لتهوين مصاعب الحج في النفوس وتقبل كل المشاق التي تنشأ في هذه الرحلة الإيمانية الطاهرة.

هذا وقد كان الشوق في الماضي أعظم والحنين أشد، وذلك لأن الناس اليوم قد اعتادوا رؤية الحرمين الشريفين في وسائل الإعلام المختلفة، ونُقل إليهم من تفاصيل أحوالهما الشيء الكثير، وذلك بخلاف أهل القرون السالفة حيث كانوا يسمعون ولا يرون وليس الخبر كالعيان، لكن يظل أصل الشوق والحنين موجودا يخالط الناس بين الفَيْنَة والأخرى ويتمنون ملابسة تلك الأماكن الطاهرة ووصل النظر والمشاهدة بالتجربة والممارسة.

هذا وإني في هذه الرسالة قد أوردت صورا من هذا الشوق والحنين مرتباً إياها على السنين، وفي الوقت نفسه جعلتها على هيئة متتابعة تكون موضوعاً متكاملاً منذ خروج الحاج من بلده إلى أن يرجع إليها.

وفائدة هذه الرسالة تتضح في الجوانب التالية:

١- بيان حكمة الله تعالى في غرس هذا الشوق والحنين في نفوس الناس حتى يفدوا إلى هذا البيت الطاهر من كل فجٍ عميق، وهذا الأمر- أي الوفود إلى الحرمين – كان له من الأهمية الشيء

الكثير خاصة في القرون الأخيرة من العاشر إلى الرابع عشر حيث ضعف المسلمون وذلوا بعد عز وتمكين، واستولى العدو على أكثر بلادهم فكان الحجاز هو موئلَهم وأمهم الحنون، فيأتون ليجددوا إيمانهم في بقاع طاهرة لم تمسها يد كافرة، ولم تستولِ عليها أطماع فاجرة، وهذا له أثره البالغ في نفوس الحجيج، قال أمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان رحمه الله تعالى[1]:

«**شعوري القومي [2] في جدة والحجاز ...**

يلذ الإنسان عند دخوله إلى جدة تذكره أنها باب مكة المشرف وأن المزار أصبح قريباً، وقد لذني أنا يوم دخولي إليها زيادة على ذلك ما شعرت منذ وطئت بقدمي رصيف جدة أني

---

(١) شكيب بن حمود بن حسن أرسلان، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة. ولِدّ في الشويفات بلبنان سنة ١٢٨٦. كان عالماً بالأدب والسياسة، مؤرخ، من أكابر الكتّاب وهو من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. انتخب نائباً في مجلس المبعوثان العثماني. وسكن دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم برلين،، وانتقل إلى جنيف بسويسرا وسكن فيها ٢٥ عاما ثم عاد إلى بيروت وتوفي بها سنة ١٣٦٦ رحمه الله تعالى. له مصنفات كثيرة ورسائل خاصة عددها يقدر بعشرات الآلاف وهو كان من أشد المتحمسين للدولة العثمانية ثم بعد ذلك للقضايا العربية. انظر: "الأعلام": ٣/ ١٧٣ – ١٧٥.

(٢) القومية عند الأمير شكيب ليست هي القومية المنتنة التي حاربت الإسلام كثيرا في الخمسينات والستينات، ولكنها القومية القائمة على أنّ عزّ العرب هو عزّ الإسلام، ولم يخطر قط بباله – رحمه الله تعالى – المعنى الأول، والله أعلم.

عربي حر في بلاد عربية حرة، شعرت أني تملصت من حكم الأجنبي الثقيل الملقي بكَلْكَله جميع البلاد العربية – ويا للأسف – حاشا مملكتي الإمامين عبدالعزيز بن سعود ويحيى بن محمد حميد الدين[1].

شعرت أني حر في بلادي وبين أبناء جلدتي، لا يتحكم في رقبتي المسيو فلان ولا المستر فلان إلخ، بحجة انتداب أو احتلال، أو سيطرة أو حماية أو وصاية، أو غير ذلك من الأسماء المخترعة التي يراد بها تنعيم مس «الفتوحات» وتخفيف مراراتها في الأذواق.

شعرت أني إن كنت خاضعاً هنا لحكومة فكل خضوع لويد جورج لحكومة إنكلترة، وكخضوع كليمنسو[2] لحكومة فرنسة، أي أني خاضع لحكومة عربية بحتة رأسها وأعضاؤها مني وإليّ وأنا منها وإليها، وبعبارة أخرى أني هنا خاضع لنفسي، وأن كل من أراه من رعاياها إنما هو خاضع لنفسه.

---

(١) ملك اليمن الحسني العلوي الطالبيّ، الإمام المتوكل على الله ابن المنصور بالله، من أئمة الزيدية، ولد بصنعاء سنة ١٢٨٦، وتولى الإمامة بعد وفاة أبيه سنة ١٣٢٢. كان شديد الحذر من الأجانب، وأجلى في أيامه العثمانيين عن اليمن سنة ١٣٣٦. قتل سنة ١٣٦٧ – رحمه الله تعالى – من بعض مدعي الإصلاح والتغيير . انظر "الأعلام": ٨/ ١٧١، ١٧٠.

(٢) هما رئيسا وزراء البلدين المذكورين.

شعرت أن رئيسي هنا هو ابن جلدتي الذي يغار علي كما أغار على نفسي، وأن الجند الذي يحيط بي ويحفظ الأمنة علي وعلى غيري هم ممن أجتمع وإياهم في أرومة[1] واحد، وممن أرمي وإياهم إلى هدف واحد، فلا تثقل علي سلطتهم، ولا يتكاءدني الخضوع لنظامهم، لأني أرى فيه نظام أمتي وانتظام شملي، وليس هنا ذلك الرئيس الغاشم، الثقيل الوطأة، السيء النية، المتكبر المتجبر المتغطرس، الغريب عني، الذي لست منه ولا هو مني، الآتي إلى بلادي ليتحكم في أمورها ويستغل خيراتها، ويضرب على سكانها الذل والمسكنة، لأنه لا يقدر أن يعتز إلا بذلهم، ولا أن يثرى إلا بفقرهم، ولا أن يقوى إلا بضعفهم، ولا أن ينصع وجهه إلا بفقر دمهم، سيأتي يوم نقول فيه: ولا يحيا إلا بموتهم.

لم أكن هنا في البلاد التي مع أنها وطني ووطن آبائي وأجدادي، وطن قومي وأمتي، وجني سواعدهم، وثمرة دمائهم التي سالت فيها أنهاراً، لا يؤذن لي أن ألقي عليها نظرة بعد غربة متطاولة، ونَبْوة متمادية، ولا أن أدوس على ترابها بقدم خفيفة ولو ساعة من الزمن،وذلك لأن غريباً غلب عليها فقبض على أعنتها وتصرف بها كيف شاء، يدخل من يشاء ويخرج من يشاء، فأصبح هو صاحب البيت وأصبح أصحاب البيت هم الغرباء.

---

(١) أي أصل.

شعرت في الحجاز أني تظللني راية عربية محضة حقيقة، ولا راية مشوبة بشعار أجنبي، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربي إلا ما كان من قبيل مرتزقة أو مستأجرين تحت قيادة مَن لا يرقب في هذه الأمة إلاًّ ولا ذمةً، وإنما ينظرون إليها كطعام للأمم التي تدعي عليها الوصاية وكمتمم لأسباب رفاهيتها ونعيمها[1].

لقد صدقت الجريدة الدمشقية التي قالت: إنه لم يبق في البلاد العربية بلاد أقدر أن أدخلها إلا الحجاز، والحقيقة أني أدخل أية بقعة أردت دخولها من جزيرة العرب حامداً لله على بقاء هذه الجزيرة تحت سلطان أهلها دون سواهم، وعلى أن حكومات الحجاز ونجد واليمن لا تعرف شيئاً من الامتيازات الأجنبية التي تكاد تغرق في لججها الأمم التي تحت الوصاية، والتي لا يزال منها رَسِيس حتى في تركيا فالإفرنجي – سواء في مملكة ابن

---

(١) قال الأستاذ عبدالقادر كمال: يرحم الله الأمير شكيباً وأنزله منازل المجاهدين الأبرار، فلقد وصف شعوره نحو أمته ووطنه بما هو كامن في صدر كل مواطن صالح، وكل عربي أصيل في عروبته؛ فلقد قرأنا عن مساوئ الاستعمار بما زاد في كراهيتنا وبغضنا له، وكان الأجدر به أن يسمى "استخراب" لا "استعمار" ولكنها القوة الباطشة في ألفاظها المزخرفة، وقد أبغضناه أشد البغض ولم نقع – بحمد الله – في شَرَكه، فكيف بمن قاسى منه الأمرين، حقق الله لبلادنا العزيزة ولجميع بلاد العرب والمسلمين كامل مجدها وعزها ورفعتها ووقاها كيد الكائدين والمستعمرين آمين.

سعود أو في مملكة الإمام يحيى- خاضع للشريعة الإسلامية بجميع أحكامها»[1] .

٢- بيان أثر هذا الشوق في تخفيف المصاعب وتليين الشدائد، وعندما يعلم حجاج اليوم مدى الحنين الذي كان عند أسلافهم لقصد هذه الديار المقدسة مع اجتماع شدائدَ عظيمة عليهم تَنِدُّ عن الحصر[2]، عندما يعلمون هذا تهون عليهم كل شديدة ويرتفعون عن كل نقيصة، فيا ليت شِعْري هل ما يجده الحجَاج من مشاق اليوم يعادل عشر معشار ما كان يجده أسلافهم؟ لا والله، ومن خبر عرف، ومن قرأ ووقف على أخبار الحج في الزمن الغابر يعلم هذا علم اليقين.

٣- بيان صلة هذا الشوق والحنين بالعاطفة الإيمانية المركوزة في فطرة الإنسان السويّ، وأن المسلم ينبغي أن يكون له قدر معين من هذه العاطفة الإيمانية ينميها ويرتقي بها حتى يحصل له من الشوق والحنين ما يكفي لأداء الشعائر والسعادة بها، ذلك لأننا نجد الأشخاص الذين تجردوا من هذه العاطفة كلها أو أكثرها

---

(١) "الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف" نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ٩٩٥-٩٩٨.

(٢) وذلك نحو تعرض الأعراب اللصوص لهم، وانقطاع الماء عنهم، وضياعهم في البراري المهلكة إلخ.

نجدهم خامدين، متأففين، كسالى، يتضايقون من ذكر الحج وشعائره فإذا تلبسوا بأدائه ودّوا لو أنهم ينصرفون منه بأسرع ما يمكنهم، ومثل هؤلاء لا يشعرون بحلاوة الحج ولا يتذوقون جماله، ولا يترك فيهم الحج الأثر المطلوب الذي قصد إليه الشارع ورغّب فيه.

وما أروعّ وأجملّ منظرّ الحجاج وهم قد انفجرت أعينهم بالبكاء، وعلا نحيبهم عندما تقع أعينهم على الكعبة المشرفة أو يقفون عند الملتزم، أو يشاهدون مسجد رسول الله ﷺ وتقر أعينهم بهذه المشاهدة، فلا تسل حينئذٍ عن العواطف المفضوحة، والدموع المسكوبة، وروعة الموقف وجلال الحدث، فمثل هؤلاء ينتفعون انتفاعاً عظيماً بأداء الشعائر، ويرجعون وهم في شوق وحنين لملابسة تلك الديار مرات وكرات، فما أحسنَ حالهم، وما أجملَ طريقتهم، سلكنا الله وإياكم في سلكهم، ونظمنا في عقدهم، ورزقنا التردد على تلك الأماكن الطاهرة، والاغتراف من حلاوتها الظاهرة الفاخرة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه

د. محمد موسى الشريف

البريد الإلكتروني:mmmalshareef@gmail.com

الموقع على الشبكة: www.altareekh.com

الشوق والحنين
يبدآن من بلد الحاج

لا شك أن الحامل لأكثر الحجاج على الوفود إلى الحرمين هو الشوق والحنين لتلك الديار الطاهرة، يستوي في ذلك مؤمنهم وفاسقهم، طائعهم وعاصيهم، إلا من ابتلاه الله تعالى ببرود العاطفة وخمود الإحساس، فهذا مبتلى والمبتلى يُدعى له بالعافية ويستعاذ بالله من حاله، ووسائل الإعلام اليوم بما لها من انتشار واسع قد قللت من لهيب تلك العاطفة، حيث صار الناس يرون الحرمين في أوقات الصلوات الخمس، وتصبروا بتلك الرؤية حتى حين، لكن كيف حال الأولين؟ وكيف كان يُثار منهم الشوق إلى البلد الأمين؟ وتُدغدغ عواطفهم للقدوم إلى مستقر سيد المرسلين عليه أفضل الصلوات والتسليم؟

قال الأستاذ محمد لبيب البَتَنوني[1]

---

(١) فاضل مصري. له اشتغال بالأدب والتاريخ. توفي بالقاهرة سنة ١٣٥٧ رحمه الله تعالى. ونسبته إلى البَتَنون من بلاد المنوفية بمصر. انظر: "الأعلام": ٧/ ١٥.

«ولقد كانت الحكومة المصرية في الزمن الغابر تخرج إلى الشوارع والحارات في أشهر الحج أناساً يتغنون بأناشيد، يسمونها تحانين، تحرك عواطف الناس إلى أداء هذه الفريضة، كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها، ولا يزالون كذلك إلى الآن»[١].

وقال الأستاذ محي الدِّين رضا – رحمه الله تعالى – وكان قد حج سنة ١٣٥٣:[٢]

«وبعد كتابة ما تقدم صليت الجمعة أمس في مسجد الرفاعي[٣]، فسمعت الخطيب يحثّ على أداء فريضة الحج بمنطق بليغ وصوت مؤثر وفصاحة وطلاقة أبكت الحاضرين، وجعلت كل واحد يتمنى لو استطاع أداء هذه الفريضة»[٤].

---

(١) "الرحلة الحجازية": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٨٠٤.

(٢) محي الدين بن صالح مخلص رضا. أديب وصحفي. أصله من القلمون بلبنان وولد بالقاهرة. وهو ابن أخي الأستاذ محمد رشيد رضا. له عدة مصنفات مطبوعة، وكان يعمل في قسم الأخبار في جريدة المقطم. عاش نحو ٨٥ سنة وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٩٥ رحمه الله تعالى.

(٣) أي في القاهرة.

(٤) "رحلتي إلى الحجاز": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١٠٦٨.

أثر الشوق والحنين في تخفيف متاعب الحاج وشدائد السفر

كانت متاعب السفر إلى الديار المقدسة كبيرة جداً، وكان شدائده صعبة للغاية، وربما مات قوم في الطريق، وتاه آخرون في الصحاري الشاسعة فهلكوا، مع ما قد يتعرض له الحاج من قطع الطريق وسرقة الأموال والدواب ... ، ولكن حب الحجاج للديار الشريفة كان يخفف عنهم كل تلك الشدائد والصعاب، وهذا الرحالة الكبير ابن بطوطة[1] يصف ذلك فيقول:

«ومن عجائب صنع الله تعالى طبع القلوب على النزوع إلى هذه المشاهد المنيفة، والشوق إلى المثول بمعاهدها الشريفة،

(١) محمد بن عبدالله بن محمد اللواتي الطنجي، أبو عبدالله ابن بطوطة. ولد في طنجة سنة ٧٠٣، ونشأ بها، ثم رحل إلى المشرق سنة ٧٢٥ فجال في البلاد وتوغل، ودخل الهند والسند والصين، ورجع إلى اليمن لقي من الملوك والمشايخ خلقاً كثيراً، وتولى القضاء بالهند. بقي في رحلته ٢٧ سنة.
مات في مراكش سنة ٧٧٩ رحمه الله تعالى. انظر "الدرر الكامنة": ٤/ ١٠٠، و"الأعلام": ٦/ ٢٣٥-٢٣٦.

وجعل حبها متمكناً في القلوب، فلا يحلها أحد إلا أخذت بمجامع قلبه، ولا يفارقها إلا أسفاً لفراقها، متولهاً لبعاده عنها، شديد الحنين إليها، ناوياً لتكرار الوفادة عليها، فأرضها المباركة نصب الأعين، ومحبتها حشو القلب، حكمة من الله بالغة، وتصديقاً لدعوة خليله عليه السلام.

والشوق يحضرها وهي نائية، ويمثلها وهي غائبة، ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق ويعانيه من العناء، وكم من ضعيف يرى الموت عياناً دونها، ويشاهد التلف في طريقها، فإذا جمع الله بها شمله تلقاها مسروراً مستبشراً، كأنه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصباً، إنه لأمر إلهي، وصنع رباني، ودلالة لا يشوبها لبس، ولا تغشاها شبهة، ولا يطرقها تمويه، وتعزّ في بصيرة المستبصرين، وتبدو في فكرة المتفكرين، ومن رزقه الله – تعالى – الحلول بتلك الأرجاء، والمثول بذلك الفِناء، فقد أنعم الله عليه النعمة الكبرى، وخوّله خير الدارين: الدنيا والأخرى، فحق عليه أن يكثر الشكر على ما خوّله، ويديم الحمد على ما أولاه.

جعلنا الله – تعالى – ممن قبلت زيارته، وربحت في قصدها تجارته، وكتبت في سبيل الله آثاره، ومحيت بالقبول أوزاره، بمنّه وكرمه»[(١)].

(١) "رحلة ابن بطوطة": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٢٣٤،٢٣٥.

وقال الأستاذ محمد حسين هيكل[1] مبيناً أثر الحنين والشوق في تخفيف المصاعب:

«وكذلك كانت هذه الجموع المُحرِمة كلها، المتوجهة كلها حاجَّة بيت الله، تجمع بين المسلمين من مختلف أقطار الأرض ممن استطاعوا إلى الحج سبيلاً، فجاءوا يحدوهم إيمان بالله تذوب دونه المتاعب وتصبح المشاق في سبيله يسرا ومثوبة، ومن عليا السماوات أرسل القمر على هؤلاء السعداء بأداء الفريضة، فما ينفكون ينادون ربّهم: لبَّيك لبَّيك، أشِعةً رطبة نديَّة تهون على الدواب السير وتبعث إلى نفس المشاة في إحرامهم أشعة أعظم منها ضياء؛ تلك أشعة الأمل الصادق في وجه الله وفي مثوبته وغفرانه، أمل يتردّد فيما يتبادلونه من حديث الطواف والسعي والصلاة في الحرم والشرب من ماء زمزم.

طبع هذا المنظر أعمق الأثر في نفسي، فهذه القوافل من المشاة والركبان تقصد إلى غاية واحدة وترجو في ربها الرجاء

---

(١) محمد بن حسين بن سالم هيكل. ولد في قرية كفر غنام بالدقهلية بمصر سنة ١٣٠٥. كاتب، صحفي، مؤرخ، من أعضاء المجمع اللغويّ ومن رجال السياسة، تخرّج في مدرسة الحقوق بالقاهرة، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من السوربون بفرنسا. تنقل في الأعمال والوظائف حتى صار وزير المعارف ورأس مجلس الشيوخ. توفي بالقاهرة سنة ١٣٧٦ رحمه الله تعالى. انظر: "الأعلام": ٦/ ١٠٧.

الأسمى، وهم جميعاً سواسية في اتجاههم، وسواسية في إيمانهم، سواسية في تفكيرهم، وهم جميعاً قد نسوا كل شيء إلا هذه الغاية الروحيَّة السامية التي تندفع نحوها جسومهم، وتطير إليها جوانحهم، وتزداد امتلاءً بها أفئدتهم وقلوبهم كلما ازدادوا قرباً من مهبط الوحي ومن بيت الله، وليس يذكر أحدهم ماله من ثروة أو جاه أو ولد وإنما يذكر أنه وهؤلاء المسافرين معه إخوة في الله، وإنهم جميعاً قد أتوا قاصدين بيته، ملبين داعيه ليُشهدوه على أنفسهم، وليطَّهروا بين يديه مما قدمت أيديهم، وليبدأوا بذلك حياةً جديدة يبتغون فيما آتاهم الله الدار الآخرة، ولا ينسون نصيبهم من الدنيا، ويُحسنون كما أحسن الله إليهم، ولا يبغون الفساد في الأرض، لهذا جاءوا من كل فج عميق، ولهذا ركبوا البر والبحر واستهانوا بالمشقة ونسوا كل شيء إلا الله، ولهذا أحرموا آية إخائهم ومساواتهم، إيذاناً بأن أقربهم إلى الله أتقاهم ومظهراً لميلادهم الروحي الجديد؛ ليتخذوا من هذا الميلاد عُدتهم لحياة جديدة؛ ولهذا تتصل قلوبهم وإن اختلفت أجناسهم وألوانهم ولهجاتهم، وهم يعبرون عن هذا الشعور بالتلبية تنفرج عنهم شفاهم في حُبور وغبطة، مطمئنين إلى رحمة الله ومغفرته، إنه يغفر الذنوب جميعاً،] t u v w x y z { | } ~ Z[1].

---

(١) "في منزل الوحي": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١١٤٦-١١٤٨.

وقال الأستاذ محمود ياسين[1] – رحمه الله– يبين أثر الشوق والحنين في تخفيف المصاعب والشدائد:

«بالرغم من أننا كنا بحاجة إلى راحة طويلة بعد هـذا العنـاء الطويل؛ لكننا كنا في حاجة أشد وشوق أقوى للوصول إلى الحـرم النبوي الشريف؛ لأننا واثقون بأن السـلام على السـيد الأعظـم سيجلو كل صدأ ويمحو كل تعـب، ومضـينا كأنمـا علـى رؤوسـنا الطير حتى دخلنا من باب السلام: قلـوب تخـف، وأرواح تـرف، وألسنة تلهف بالصلاة والسلام على خير الأنـام والمبعـوث رحمـة للعالمين»[2].

(١) فقيه، مشارك في علوم اللغة والأدب. ولد سنة ١٣٠٤ بدمشق. حفظ القرآن وجـوّده صغيراً، وقرأ على مشايخ العقائد والفقه والأصول والنحو والصرف، وتلقـى علـوم الحديث عن مشايخ كبار مثل الشيخ بدر الدِّين الحسنيّ . كان زاهداً ورعاً يقوم الليل. أنشأ مدرسة للعلوم الشرعية وأغلقت من قِبل السلطات الفرنسية، ودرّس في مدارس دمشق الثانوية وفي مساجدها، ورفض منصب القضاء الشرعي، وساهم في إنشاء عدة جمعيات ومنها جمعية "الهداية الإسلامية" الـتي رأسـها. تـوفي – رحمـه الله تعـالى – سـنة ١٣٦٧. انظر ترجمته في مقدمة رحلته، وقد سطر تلك الترجمة ابنه مأمون.

(٢) "الرحلة إلى المدينة المنورة": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١٢٦٤.



أثر الإحرام والتلبية في إحداث الشوق والحنين

قال ابن شرف:

وعاصٍ لأمر تاب من الذنب   وأقلع إقلاعَ المنيب إلى الرب
وأحرم من ميقاته وقت سيره   إلى مكة إحرامَ مُعتمرٍ صَبٍّ
ولبى بالألفاظ النبيّ محمدٍ   وصلّى عليه باللسان وبالقلب

إن لمنظر المحرمين والملبين أثراً في النفس بالغاً يحدث خشوعاً وشوقاً وحنيناً، وهذا ما حدّثنا عنه بأسلوبه الجميل أمير البيان شكيب أرسلان حيث يقول واصفاً ذلك في حجه سنة ١٣٤٨:

«فصلنا من ميناء السويس في ٨ مايو على باخرة تقل نحواً من ١٣٠٠ حاج من إخواننا المصريين، وفيهم بعض المغاربة، فسارت بنا الباخرة رَهْواً ورخاءً لم نشعر فيها إلى جدة بأدنى حركة للبحر تزعج الراكب، وإنما كان المزعج هو اكتظاظ السفينة بالراكبين حتى لا يقدر أحد أن يمر من شدة الزحام.

وفي اليوم الثالث من مسيرنا ناوَحْنا[1] ميناء رابغ، ولما كان الحجيج الوارد من الشمال في البحر الأحمر عليه أن يحرم من رابغ

---

(١) أي قابلنا، انظر: "القاموس المحيط": نوح، وجاء فيه: التناوح: التقابل، والأمير شكيب يستعمل من اللغة جزلها، وغريبها أحياناً.

فقد أحرم جميع الحجاج الذين في الباخرة، وارتفعت الأصوات من كل جهة: «لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» فاستشعر الناس من الخشوع في أثناء ضجيج الحجيج هذا ما اتصل بأعماق القلوب، وتغلغل في سرائر النفوس، وأحسَّ الجميع أن البيت الذي يخلع الناس تعظيماً له أثوابهم قبل الوقوف بعتبته بمسيرة يومين، ويشتملون في القصد إليه ما ليس فيه شيء من المخيط لبيت مقدس، لا يؤمه الناس كما يؤمون سائر البيوت، وأنه فوق بيوت الملوك، وفوق مقاصير القياصرة، وأواوين الأكاسرة، التي لا يحرم في الطريق إليها أحد لا من بعيد ولا من قريب»(1).

وقال الأستاذ علي الطنطاوي(2) رحمه الله تعالى:

«خرجت من الدار بثياب الإحرام، وشعرت من أول لحظة أني قد خرجت من التكلف والرسميات وأوضاع الاجتماع، وأني لما نزعت ثيابي نزعت معها ذلك كله، وكل ما يتصل به من كذب الحال أو كذب المقال، ولم أحسَّ بأني قادم على سفرة طويلة كان يضرب بطولها ومشقتها المثل بل كنت أحس كأني

---

(1) "الارتسامات اللطاف": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية":٣/ ٩٩٠.

(2) أديب العربية المعروف. سوري من أصل مصري من بلدة طنطا. استوطن مكة فسكنها طويلاً كانت له رحلات وجولات في نصرة فلسطين والقضية الإسلامية. له العديد من المصنفات الدالة على علو كعبه في باب الأدب. وله آلاف الأحاديث في وسائل الإعلام، وله كذلك آلاف المقالات. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٤٢٠هـ.

منتقل من بيت في الدار إلى بيت آخر، فأنا أستشعر لذلك الأمن والاطمئنان.

وبلغنا المطار، وكان الحجاج جميعاً بهذه الثياب العجيبة، التي لا يفترق فيها الأمير عن الأجير، والكبير عن الصغير، فشعر كل واحد منا بمثل ما يشعر به السجين المخنوق إذا تسرب إليه نسيم الحرية، ثم ارتفعت بنا الطائرة فارتفعت معها نفوسنا تتطلع إلى الحياة السامية التي نحن قادمون عليها، وتصورت تلك البقاع التي كانت منزل الوحي، وكانت مصنع التاريخ، وكانت مبعث النور إلى الدنيا كلها، وكانت أبداً وطن الروح لكل مسلم، وإذا كان شعراء العرب قد نسوا أوطان أجسادهم لما وقفوا على أوطان قلوبهم على منازل الأحبة، فنظموا فيها أغلى عقود الشعر، من لدن امرئ القيس إلى أن يَغِيض[1] نبع الشعر من نفوس شعراء العرب، فإن كل مسلم ينسى مواطن قلبه ومنازل حبه حين يذكر مواطن الروح المسلمة: مكة والمدينة والأقصى وهاتيك الربوع التي تتشهى كل عين مسلم أن تراها، وكل قلب مسلم أن يطيف بها.

وتخيلت المسلمين وهم يتوجهون في آفاق الأرض إلى هذه الكعبة، وبينهم وبينها الجبال والصحاري والبحار، فإذا مضوا إلى

---

(١) قال الأستاذ علي: ولن يغيض.

قلت : ويغيض بمعنى ينقطع ويجف.

الحج اسّاقطت هذه الحجب حجاباً بعد حجاب، كلما قطعوا مرحلة بعد مرحلة، حتى يقوموا أمامها يرونها رأي العين، ويلمسونها لمس اليد، وهنالك الفرحة الكبرى، التي لا تبلغها فرحة محب بلقاء من يحب بعد طول النوى.

وطفق ركاب الطائرة يلبون، فكنت أروض نفسي على استحضار معنى التلبية، فأتصور أوامر الشرع وأن الله يدعونا إلى اتباعها، فأقول: لبيك اللهمَّ لبيك، وأتصور أنه يدعونا لترك ما نهى عنه، فأقول: لبيك اللهمَّ لبيك، لبيك جئت طائعاً مستجيباً، عازماً على اتباع أوامرك، والوقوف عند محارمك، وتصورت كأني خلفت الدنيا ورائي بصداقاتها وعداواتها ومطامعها ومخاوفها، وأني قادم على الله فلا أرجو معه صديقاً ولا أخشى أمامه عدواً، ثم قمت فكلمت من في الطيارة، أشرح لهم هذه المعاني حتى وقفوا جميعاً عليها، وعَرَّتْهم – كما عرتني – هذه النفحة من السمو الروحي التي لا تعرض للمرء مرة في السنين الطوال، وغمرتنا موجة من لذة التأمل، وحلاوة الإيمان لا يمكن أن تسمو إلى وصفها الأقلام»[1].

---

(١) "من ذكريات الحج": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١٢٧٥-١٢٧٦.

الشوق والحنين
عند رؤية حدود الحجاز

قد كان للحجاج في الزمان السابق شوق عظيم وحنين عجيب إلى المناسك، ويتمنون لو وصلوا إليها بأسرع ما يقدرون عليه، لذلك كان حنينهم وشوقهم أعظم ما يكون عند رؤية حدود الحجاز وأعلامه، وهذا الأمير شكيب أرسلان يتحدث عن هذا الأمر واصفاً له أحسن وصف فيقول:

«وما زال الناس مستشعرين الخشوع تلك الليلة، مواظبين على التلبية، مترقبين طلوع الفجر الذي يدنيهم من جدة- ميناء البيت العظيم الذي يؤمونه – إلى أن انفلق الصبح، وأخذت تبدو جبال الحجاز للعين المجردة، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتسبيح والتكبير، وازداد ضجيج التلبية للعلي الكبير، وخالط الهيبة والخشوع بالقدوم على البيت الحرام الفرحُ والابتهاج بالوصول إلى أطهر بقعة وأقدس مرام، ولم تكن ترى إلا عيوناً شاخصة ولا تحس إلا قلوباً راقصة، والجميع متطلعون إلى سواحل الحجاز، منتظرون بذاهب الصبر أن يقبلوا على جدة لكن بتُؤَدة عظيمة لما

في هذا المرسى من الجبال والصخور التي تكاد رؤوسها تبرز من تحت لجج البحر، وإذا بخمس عشرة باخرة راسيات في ذلك الميناء على أبعاد متفاوتة من البر»[1].

وهذا الشيخ علي الطنطاوي – رحمه الله تعالى – يتحدّث عن أثر رؤية جبال المدينة في تخفيف المشاق وتليين الصعاب، وكان قد واجه قدراً كبيراً منها عندما ارتحل بالسيارات من دمشق إلى المدينة وكابدوا من مشاق السفر ما كابدوه، وغاصت السيارات في الرمال مرات عديدة، فيقول واصفاً ذلك كله:

«صحت بالدليل، محمد العطوي: يا محمد إيش تكون هذه الجبال؟

فقال: هذه يا خوي جبال المدينة، وحنا – نحن – إن شاء الله الظهر فيها.

فقلت: ما تقول؟ ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتقي، وأحسست كأن صب في أعصابي عزم أمة، وقوة جيش، وظننت أني لو أردت السحاب لنلته، ولو غالبت الأُسْد لغلبتها؛ ولو قبضت على الصخر لفتته، وجعلت أقفز وأصرخ لا أعي ما أنا فاعل؛ فقد استخفني الفرح، وسرني من هذه الكلمة أكثر ما يسرني أن يقال لي: أنت أمير المؤمنين.

(١) "الارتسامات اللطاف": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ٩٩١.

وصحتُ بأصحابي فقاموا كالأسود.

عالجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل، وملن بها عن هذه الكثبان، حتى ألقيناها عن أيماننا، وانتهينا إلى أرض شديدة درجت عليها السيارات، فاستندت إلى النافذة وأطلقت نفسي تطير في سماء الأماني، فلم أدع صورة للمدينة إلا تصورتها، وأقمتها أمام عيني، وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال فلا أطمئن إليها ولا أجدها إلا دون ما في نفسي»[1].



(١) "إلى أرض النبوة": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١١٢٥.



الشوق والحنين
إلى مكة المكرمة
والبيت العتيق

ذكر الشيخ محمد رشيد رضا[1] – رحمه الله تعالى – طريقة لتحصيل الخشوع في الحرم الشريف، فقال بادئاً حديثه بالتلبية وأثرها، رابطاً إياها بقضية الشوق والحنين والعاطفة:

«تلك التلبية تملأ قلب متدبرها إيماناً وتوحيداً، وتجرده من الحظوظ والأهواء تجريداً، وتعده لزيارة بيت الله والطواف، وهو في أحسن حال وأتم استعداد.

حتى إذا اكتحلت عينه برؤية الكعبة المعظمة، وراع القلب ما جللها من المهابة والعظمة تذكر أنها أول بيت وضع للناس

---

(١) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلمونيّ البغدادي الأصل الحسينيّ، صاحب مجلة "المنار" وأحد رجال الإصلاح الإسلاميّ. ولد في القلمون – من أعمال طرابلس الشام – سنة ١٢٨٢، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٢ فلازم الشيخ محمد عبده حتى صار مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ارتحل مراراً. وله مصنفات كثيرة. توفي سنة ١٣٥٤ بمصر، رحمه الله تعالى. انظر: "الأعلام": ٦/ ١٢٦.

مباركاً وهدى للعالمين، وخصه الله بالآيات البينات الباقية على بقايا الأيام والسنين، ورأى أمامها مقام إبراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما الصلاة والسلام، ووجد نفسه حيث كان بَدْء دين الله الإسلام وحيث الختام، فإذا دنا من مهبط الروح الأمين ومطاف الملائكة والنبيين، والصديقين والشهداء والصالحين فلا تسل ثَمّ عن الدموع كيف تنسكب، وعن الضلوع كيف تضطرب، وعن الأعناق كيف تخضع، وعن القلوب كيف تخشع، ولا عن وجدان الإيمان كيف يتألق نوره في الجنان، ويفيض بيانه على اللسان، فيحركه بما يلهم من الثناء، وما يشعر بالحاجة إليه من الدعاء، وما يذكره أو يُذَكّر به من المأثور، لا تسل أيها القارئ عن شيء من ذلك، ولا عن غيره مما يكون عند أداء المناسك، فمن ذاق عرف، ومن حُرم انحرف.

على هذه الحال تدخل الحرم المقدس، طاهر القلب والبدن من الحدث والدنس، فتأتي الركن الأسود، حيث العظمة والسؤدد، فتقول: بسم الله، الله أكبر، فيصغر في قلبك كل شؤون البشر، ثم تبدأ الطواف مع النية والإخلاص بلمس الحجر وتقبيله إن قدرت، وبالإشارة إليه إن أنت عجزت، ولا بأس بأن تتذكر ما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من قبلك: إنني أعلم أنك لا

تضرّ ولا تنفع، ولولا أنَّ رسول الله ﷺ قَبّلك لما قبلتك[1]، فتقبيلك ليس لذاتك الحجرية، ولا لمنفعة فيك مرجوة أو مضرة مخشية، ولا هذا الطواف الذي بك يبتدأ أو عندك يختتم في معنى عبادة الوثن وتعظيم الصنم، وإنما هو خضوع لأمر الله، واقتداءً برسول الله، وتعظيم لما عظّم الله، وأنس بالقرب مما نسب إلى الله يكمل به توحيد الله، وتنمى به محبة الله، فمن شأن المحبين الأنس بكل ما ينسب إلى المحبوب، ولا سيما إذا تعذر اللقاء وعزَّ الوصول، وكم نظموا من الأشعار في الوقوف بالأطلال والطواف بالآثار:

أمُرّ على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارَ

وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارَ

ولما كان الرب العلي العظيم، الجدير بأعلى مراتب الحب والتعظيم، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولا يراه عباده في هذه الدار كان من رحمته بالمؤمنين المحبين أن وضع هذا البيت للطائفين منهم والعاكفين، ونسبه إليه ليكون تعظيمه تعظيماً له ...».

---

(١) قال المحقق: عبارة عمر: "ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك" إلخ، رواه الجماعة كلهم.

ثم تحدّث عن كيفية تحصيل الخشوع في السعي فقال:

«السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة، وليس له نفل فلا يفعل في كل منهما أكثر من مرة، ويجب أن يكون بعد الطواف، ولا يشترط فيه شروط الصلاة.

وتذكر عند السعي أنه ذكرى سعي جدتنا السيدة هاجر عليها الرضوان، أم أبينا إسماعيل – عليه السلام، وعلى أبيه، وصفوة بينه ﷺ- ويا لها ذكرى لمجد العرب الكرام، ومعجزات الإسلام، مثبتة لحفظ الله – تعالى – لهذه الملة، وعناية بهذه الأمة، حفظتها العرب بالعمل المتواتر، وكم حفظت ماهو دونها من المآثر، وما يحفظ بالتمثيل والمحاكاة يكون أثبت مما يحفظ بالتلقين والروايات.

أليس تمثيل حال تلك الأم جائعة ظامئة، والهة حائرة، تشاهد طفلها يتلوى ويتمرغ من شدة الجوع والظمأ، فيسوقها ذلك الألم إلى الفرار من رؤيته بتلك الحال، والسعي بين ذينك الجبلين القريبين من ذلك المكان، تصعد هذا مرة وتلك أخرى، ضارعة إلى الله راجية أن تجد من عنده غوثاً، حتى إذا ما انتهت من الشوط السابع أرسل الله – تعالى - روحه الأمين الذي يؤيد به الأنبياء، فأنبع لها ذلك الماء، وجعل فيه الري والغذاء، ثم ساق ذلك الركب من جُرْهم إليها، وسخرهم للإقامة عندها، ليتربى

فيهم ولدها، ثم يجعله أصلاً لهذه الأمة الكريمة، ويجعل ذلك الوادي القاحل صَدَفة لدرة الكعب اليتيمة؛ إذ جعله بلداً يحفظ بيته الذي جعله مثابة للناس وأمناً، وجعل قلوب الناس تهوي إليه من جميع الأقطار إيماناً ونسكاً، ورزق أهله من الثمرات، وسخّر لهم البشر في كل زمان، ألسنا نرى في هذا العام معجزة من معجزات هذا التسخير؟ بلى وقد ابتلى في هذا العام وما قبله الأمم الغنية القوية، المتصرفة في البلاد العامرة الخصبة الغنية بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، بهذه الحرب الأوربية التي تقطعت بها الراوبط وقلت المواصلات، واقتضى دخول الدولة العثمانية في غمراتها أن تضرب الدول المحاربة لها حجراً بحرياً على جميع سواحلها، فكان الضيق على سكان حرم الله – تعالى – أليماً شديداً، حتى إذا ما أوشك أن يفتك بهم الموت جوعاً سخر الله – تعالى – لهم تلك الدول تحمل إليهم الأقوات والأموال، وتنقل إليهم وفود الحجاج، وأراهم بهذه الإغاثة العامة مثالاً لتلك الإغاثة الخاصة، أعني إغاثة هاجر وإسماعيل، واستجابة لدعاء الخليل] b c d e f g h i j Z[1] وكثيراً ما ذكرت الناس بذلك، في أثناء أداء المناسك.

---

(١) سورة إبراهيم : آية ٣٧.

فمن سعى بين الصفا والمروة عالماً بما ذكرت، متذكراً له، معتبراً به، فإنه يشعر في قلبه بنماء الإيمان بالله وبرسل الله، ويفهم سرّ قوله تعالى] T U V W X Y Z|Z[1]»[2]



(١) سورة البقرة: آية ١٥٨.

(٢) "رحلة الحجاز": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٨٧٧-٨٨١.

أمثلة على الشوق والحنين إلى الحرم المكي الشريف

قال ابن جبير الأندلسيّ رحمه الله تعال[1] يصف أهل جبال السروات وشوقهم إلى الحرم:

«وبلادهم على ما ذُكِر لنا خصيبة متسعة كثيرة التين والعنب، واسعة المَحْرَث وافرة الغلات، وقد اعتقدوا اعتقاداً صحيحاً أن البركة كلها في هذه المِيرة التي يجلبونها، فهم من ذلك في تجارة رابحة مع الله عزَّ وجل.

والقوم عرب صُرَحاء فُصَحاء جُفاة أصحّاء، لم تُغذّهم الرقة الحَضَرية، ولا هذبتهم السيرة المدنية، ولا سددت مقاصدهم السّنَن الشرعية، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صِدْق النية، فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تَطارُحَ

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير الكنانيّ الاندلسيّ الشاطبيّ البَلَنسيّ. رحالة أديب. ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ ونزل شاطبة. برع في الأدب ، ونظم الشعر الرقيق، وأحب الترحال والتنقل، فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة ٥٧٨-٥٨١ وهي التي ألف فيها رحلته. مات بالإسكندرية في رحلته الثالثة سنة ٦٤١ رحمه الله تعالى. انظر: "الأعلام": ٥/ ٣٢٠.

البنين على الأم المشفقة، لائذين بجوارها، مُتعلقين بأستارها، فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها، وفي أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية تتصدع لها القلوب، وتتفجّر لها الأعين الجوامد فتصُوب[١]، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم، مُؤمّنين على أدعيتهم، مُتلقّنين لها من ألسنتهم، على أنهم طول مُقامهم لا يتمكن معهم طوافٌ، ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر.

وإذا فُتحَ الباب الكريم فَهُمُ الداخلون بسلام، فتراهم في محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلى أزيدَ من ذلك، والسلاسل منهم، يتبع بعضهم بعضاً، وربما انفصمت بواحد منهم، يميل عن المَطْلع المبارك إلى البيت الكريم، فيقع الكل لوقوعه، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك»[٢].

ووصفهم – أيضا– أبو القاسم السَبتيّ[٣] فقال:

«وأما دخولهم إلى البيت الشريف فمن أغرب ما يُرى، لأن بعضهم يتماسك ببعض في حال الدخول، فيتصل منهم عدد

---

(١) قال المحقق: مضارع صاب المطر: انصب.

(٢) "رحلة ابن جبير": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٧٦،٧٧.

(٣) هو القاسم بن يوسف بن محمد التُجيبيّ السَبتي. حفظ القرآن وقرأه بالقراءات، ودرس التفسير والحديث والمصطلح والفقه والعربية، توفي سنة ٧٣٠ رحمه الله تعالى. انظر: "مقدمة المحقق لرحلته".

كثير على هذه الصفة، وربما ازدحموا علـى أدراج البيـت الشـريف فيسقط أحدهم ويسقط بسقوطه جماعة لتماسك بعضـهم بـبعض، وإذا دخلوا البيت الشريف تطارحوا على أركانه وجميع نواحيـه... وإذا تطارح أحـدهم علـى موضـع مـن مواضـع البيـت يريـد ألا ينفصل منه»[1].

وقال أبو القاسم التُجـيبي السـبتيّ يصـف الشـوق والحـنين الملازمين لقوافل الحجيج، ويكون أعظـم مـا يكـون إذا شـوهدت تلك المعاهد:

«فلما قربنا من التنعيم ولاحت لنـا المسـاجد الـتي هنالـك، وهي التي تنسبها الناس اليوم لعائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – صرخ الناس بالتلبية والـدعاء، وارتفعـت الأصـوات بالتضـرع والبكاء، وعاينا مـن الخشـوع والخضـوع مـا كـاد يـذيب قلوبنـا، ويذهب عقولنا وألبابنا.

وكان معنا في القافلة شخص فاضل من أهل الخير والسمت الحسن- كانوا يدعونه بالفقيه حسن – فلما قربنا من التنعيم أخذه حال وخشوع، وعلته رقـة وخضـوع، وبكـى وأبكـى، ثـم غشـي عليه، وكاد يذهب عقله، فسـرى حالـه للحاضـرين، وزادهـم في شوقهم وقلقهم لرؤية البيت الشريف – زاده الله تشريفاً وتعظيمـاً ومهابةً وتكريماً- .

---

(١) "مستفاد الرحلة والاغتراب": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٨٥.

وبلغنا أن الشبلي[1] – رضي الله عنه – لما وصل إلى مكه – شرفها الله تعالى – جعل يقول:

أبطْحاء مكة هذا الذي أراهُ عياناً وهذا أنا

ثم غشي عليه يرحمه الله.

ثم استمر السير، وزاد الخشوع، وعظم الشهيق والبكاء، وعلت الأصوات بالتلبية والدعاء إلى أن نزلنا في الربع الآخر من ليلة السبت الخامس عشر من رمضان المعظم من سنة ست وتسعين المذكورة، وبموافقة ليلة السادس من شهر يولية العجمي الشمسي على الباب المعروف الآن بباب الشبيكة، وبباب العمرة أيضاً – وكان قديماً يعرف بباب الزاهد – وهو بأسفل مكة عند ثنية كُدي بقرب شعب الشافعيين ... »[2].

وهذه شهادة من رجل غربي كافر اسمه جوزف بيتس حج إلى مكة مع سيده، وذكر ما شاهده من حال الحجاج فقال:

---

(١) هو أحد الصوفية المشهورين الأوائل واسمه دُلَف بن جَحْدر، ولد سنة ٢٤٧، وكان مبدأ أمره أنه كان والياً على بلدة في الري، ثم ولي الحجابة للموفق العباسي، ثم ترك ذلك وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح، له شعر جيد، أصله من خراسان ونسبته إلى شبلة قرية من قرى ما وراء النهر، توفي ببغداد سنة ٣٣٤. انظر: "الأعلام": ٢/ ٣٤١. وانظر: "سير أعلام النبلاء": ١٥/ ٣٦٧ وما بعدها، وقد قال عنه الذهبي: له مجاهدات عجيبة انحرف منها مزاجه، وقال أيضا: وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن لكنه كان يحصل له جفاف دماغ وسُكر فيقول أشياء يعتذر عنه فيها.

(٢) "مستفاد الرحلة والاغتراب": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٨٠-١٨١.

«عندما وقع نظر الحجاج للمرة الأولى على الكعبة المشرفة فاضت عيونهم بالدموع، ثم طفنا بالكعبة المشرفة سبعة أشواط، ثم صلينا ركعتين، ثم قادنا الدليل (المطوف) للطريق مرة أخرى ورحنا نهرول وراءه تارةً ونمشي تارةً أخرى من أحد طرفي الطريق إلى طرفه الآخر - يقصد السعي بين الصفا والمروة – ولا أملك إلا أن أعجب من الكائنات البائسة[1] (يقصد الحجاج) الذين يبدو عليهم التأثر الشديد والعاطفة الجياشة وهم يؤدون هذه المناسك. (وصف بيتس هذه المناسك بالخرافات)، ولم أستطع إلا بالكاد أن أكبح دموعي من الانهمار عند رؤية حماسهم .. (وصف بيتس حماسهم بأنه حماس أعمى ووثني)[2].

وقد عمل كل الحجاج على استغلال كل وقتهم في مكة المكرمة في العبادة»[3].

ووصف جوزف بتس الحجاج عند مشاهدتهم الحرم -أيضاً- فقال:

«وخلال الأيام الثلاثة التي يقضونها في منى يفكر الواحد منهم – إذا لم يكن واهناً ضعيفاً – في زيارة الكعبة المشرفة مرة

(١) لا يكاد الغربيون يفهمون المشاعر الإسلامية، ولا يقدرون حال الحجاج.

(٢) قاتله الله ما أعظم حقده.

(٣) "رحلة جوزف بيتس": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٣٣٤.

واحدة على الأقل؛ إنهم يشدون الرحال إلى هناك بحماس فائق لإلقاء نظرة جديدة على بيت الله الحرام، فإذا ما رأوه انفجرت عيونهم بدموع الفرح»[(١)].

ثم وصف جوزف بتيس حال الحجاج وهم يودعون الحرم فقال:

«وفي المساء السابق لمغادر مكة المكرمة لا بد من طواف الوداع، فيدخل المرء من باب السلام فيطوف قدر ما يستطيع، وبعض الناس يظلون يطوفون حتى يعتريهم التعب، وتفيض عيونهم بالدمع لأنهم يودعون بيت الله ويبدون حقيقة غير راغبين في مفارقته، ويشربون من ماء زمزم حتى الامتلاء ويتراجعون إلى باب الوداع ووجوههم صوب بيت الله، وبيت الوداع هذا مواجه لباب السلام، وعند خروجهم من باب الوداع يعقدون أيديهم تجاه بيت الله، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم للبيت عند الوداع، ويظلون في حالة بكاء وهم يدعون ويتوسلون إلى الله حتى يصلوا بيوتهم»[(٢)].

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٣٤٠.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٤١،٣٤٢.

وقال الوَرْثيلاني[1] – رحمه الله تعالى– واصفاً الشوق إلى الحرم:

«بتنا في قديد ثم ارتحلنا منه آخر الليل سائرين إلى طلوع الفجر، فصلينا الصبح في جماعة، ثم ركبنا وسرنا كذلك إلى عقبة السكر فصعدناها، وهي صعبة على الجمال والرجال لاسيما من صعدها في زمان الحر غير أن من علم قرب الوصول إلى مكة المشرفة هان عليه أمر ذلك وسهل عليه حالها، وأشرفنا على الكدية التي بها البناء المعلوم وفيها أبنية كثيرة، نعم من وصل هناك شم رائحة الجوار واستراح من التعب؛ بل الإنسان يغيب عن حسه إذا وصل إلى ذلك الموضع فلا تجد أحداً إلا انبسط وجهه، وانشرح صدره، وتمكن قلبه، واطمأن بالله صدره، وطابت بذلك نفسه، وبتجلي البيت انخشع قلبه، وتتزاحم الأركاب وتتلاحم حتى لا ينعطف بعضهم على بعض، رحم الله الجميع بمنه وكرمه»[2].

(١) الحسين بن محمد السعيد الوَرثيلانيّ نسبة إلى بني ورثيلان– قبيلة جزائرية – ولد سنة ١١٢٥. مؤرخ، فقيه مالكيّ، له اشتغال بالتصوف. حج فأخذ من علماء مصر والحجاز. له بعض المصنفات. توفي سنة ١١٩٣ رحمه الله تعالى. انظر: "الاعلام": ٢/ ٢٥٧.

(٢) "الرحلة الورثيلانية": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٣٦٧.

وقال ريتشارد بيرتون[1] واصفاً شوق الحجيج إلى مكة:

«في حوالي الساعة الواحدة استيقظت على أصوات هتاف عام: فقد كان البعض يصيحون: مكة! مكة! وآخرون يقولون: الحرم! الحرم! وانخرط الجميع في عاصفة من التلبية الحارة يتخللها بكاء الشوق الحار»[2].

وإن أنسى فلا أنسى ما حدثنيه به أحد كرام أصحابي وخُلَّص إخواني الذي اعتاد الحج كل عام، فابتلاه الله تعالى سنة من السنين بالذهاب إلى إحدى البلاد الغربية للعلاج من مرض أَلَّم به، وكان ذلك زمان اقتراب شهر ذي الحجة، فأجبره المرض على المكوث فلم يُكتب له الحج تلك السنة، ويحدثني فيقول:

فتحت التلفاز في المستشفى وإذا بصورة الحرم والحجاج فيه، فتذكرت حالي وما أنا فيه، وغلبني الشوق والحنين إلى البيت العتيق، فأخذت أبكي ثم علا نحيبي وبكائي في المستشفى حتى هرع إليّ بعضَ الناس يسكنونني ويُخَفِّضونني ويهدئون من روعي.

---

(١) رحالة إيرلنديّ. ولد سنة ١٨٢١. جاب كثيراً من بلاد آسيا، وادعى الإسلام للوصول إلى مآربه الاستخرابية البغيضة وليصل إلى السياحة في الحرمين خاصة وشبه الجزيرة عامة. نشر من رحلاته ٤٣ مجلداً وترجم إلى الإنجليزية من العربية والفارسية ٣٠ كتاباً، وأتقن وعرف ٢٥ لغة وأربعين لهجة، وعمل ضابطاً في الجيش البريطاني في الهند. انظر: "مقدمة المترجم لرحلته".

(٢) "رحلة بيرتون": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٥٢٧، ٥٢٨.

سبحان الله هذا حال رجل قد حج عشرات المرات فكيف حال مَن لم يحج بعد؟ لكنّ صاحبي هذا ذاق فعرف، وليس الخبر كالعُيان.

وما أحسن ما قاله الحافظ ابن ناصر الدِّين(١) مما يعد مناسباً إيرادُه في هذا المقام:

«إخواني: القاعدُ لعذرٍ ثَوَى به، شريكُ السائِر في أجره وثوابه، والمنقطعُ ببدنه عن رُفقة السائرين، محسوبٌ بقلبه في جملة الوافدين.

قال رسول الله ﷺ لما رَجَع من غزوة تبوك وقَرُبَ من المدينة: **«إنَّ بالمدينة أقواماً ما سِرْتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه»**.

قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: **«وهم بالمدينة حَبَسهم العذر»**(٢).

---

(١) محمد بن عبدالله بن محمد القيسيّ الدمشقي الشافعي، شمس الدِّين الشهير بابن ناصر الدِّين. حافظ، مؤرخ. ولد في دمشق سنة ٧٧٧، وأصله من حماة. ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية سنة ٨٣٧. كان كثير الحياء، سليم الصدر، حسن الأخلاق، قتل شهيداً في إحدى قرى دمشق سنة ٨٤٢ رحمه الله تعالى. له مصنفات كثيرة. انظر: "الأعلام": ٦/ ٢٣٧، و"الضوء اللامع": ٨/ ١٠٣-١٠٦.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب المغازي: آخر غزوة تبوك.

ياسائرين إلى البيت العتيق لقـد سِرتُم جُسُوماً وسِرْنا نحن أرواحا
إنا أقمنا على عُذْر وقد رَحَلـوا ومن أقام على عذر كمن راحا[١]



(١) "مجلس في فضل يوم عرفة": ١٨أ.

أثر رؤية الكعبة والصلاة فيها
في تهييج الشوق والحنين

قد كان لرؤية الكعبة المشرفة أو الصلاة فيها أثر بالغ على جموع الحجاج في تهييج شوقهم وحنينهم وهذا من حكمة الله تعالى وحسن تدبيره وجمال تقديره، حيث ربط القلوب بها حتى يعاودها المرء حيناً بعد حين، فهذا الأستاذ محمد رشيد رضا – رحمه الله تعالى – يصف ما جرى له عندما دخل الكعبة في حجة سنة ١٣٣٤:

«دخلت المسجد الحرام في وقت الضحى من يوم الجمعة ١٥ ذي الحجة، فوجدت باب البيت العتيق المعظم مفتوحاً وفيه بعض شبان آل الشيبي الكرام، فرأيت الفرصة سانحة للتشرف بالدخول فيه والوقت هادئ لا يكدر صفوَه احتفالٌ ولا ازدحام، فتوضأت من بئر زمزم، وأدلى الشيبيون لي السلم، فصعدت فدخلت متذكراً دخول رسول الله ﷺ، متمثلاً حاله في ذلك اليوم العظيم يوم الفتح، ففاجأني من الهيبة والخشوع والبكاء مالم يسبق له نظير، ووقفت زمناً لا أستطيع فيه الإحرام بالصلاة ولا النطق

بالتكبير، فصليت فيه ركعتين هما أرجى ما أحتسبه عند الله – تعالى – من التطوع، ثم صليت في كل جهة من الجهات الثلاث الأخرى ركعتين»[1].

وقال الأستاذ محمد حسين هيكل رحمه الله تعالى مبيناً ما حصل له عندما رأى الكعبة في حجه سنة ١٩٣٦:

«تبدت لي الكعبة قائمة وسط المسجد، فشد إليها بصري، وطفر نحوها قلبي، ولم يجد فؤادي عنها منصرفاً، ولقد شعرت لمرآها بِهزّة تملأ كل وجودي وتحركت قدماي نحوها وكلي الخشوع والرهبة، وقلت إذ وقع نظري عليها ما ألقى المطوِّف علينا أن نقوله: اللهمَّ أنت السلام ومنك السلام، حيِّنا ربنا بالسلام، فزادني تحرك شفتي بهذه الألفاظ مهابةً ورهبةً، وأراد مطوفي ونحن نتخطى إليها أن يحدثني في تاريخ المسجد وأبوابه وما أضيف إليها من عهد الرسولﷺ، ثم أمسك حين لم يجد مني إقبالاً على سماعه، وكيف لي في هذه الساعة بالاستماع إلى حديث وقد ملك البيت علي نفسي وجذبني لأسرع إليه فأطوف به وأذكر الله عنده»[2].

(١) "رحلة الحجاز":نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٩١٤،٩١٥.

(٢) "في منزل الوحي": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١١٤٩،١١٥٠.

وقال الأستاذ علي الطنطاوي – رحمه الله تعالى-:

«وأعظم ما يلقاه الحاج حين يقف بباب المسجد، ويرى الكعبة قائمة بهيبتها وجلالها، ويرى الناس من حولها الصورة التي طالما داعبت خياله، وبدت له في ثياب الأماني، يراها الآن حقيقة واقعة، كمن يشتاق لقاء الحبيب ودون لقائه الأمد البعيد، والحجب والأستار، فلا يزال يدنو ويقترب حتى يطيف بالأسوار، ويقف على الباب، فإذا فتح له وارتفعت من دون الحبيب الستر بلغ ما يبلغه الحاج حتى يقف على باب السلام!

وجعلت أتخطى الأعناق وما في الحرم موطئ قدم لسائر، وما يبدو شبر من أرضه لناظر، حتى بلغت المطاف، فوقفت أنظر إلى الطائفين من كل لون وجنس، قد توحدت ثيابهم، واختلفت ألوانهم وألسنتهم، فسمر وبيض، وسود وشقر، ينادون بكل لسان: بالعربية والفارسية والتركية والكردية والسودانية والبربرية والشركسية والأفغانية والأردية والملاوية والصينية والبخارية، وعشرين لغة أخرى لا أعرف أسماءها، كلهم يقرع باباً واحداً، وينادي سيداً واحداً، والباب مفتوح لا يضيق بأحد، والسيد أكرم الأكرمين لا يعجزه طلب، ولا يرد طالباً، الطائفون يتعاقبون مسرعين، مزدحمين، في موكب علوي، لا يزال يمشي لا ينقطع ساعة، لا في حج ولا في غير حج، لا في ليل ولا نهار، لا في

صيف ولا شتاء، منذ بنى إبراهيم هذه البِنَيّة من خمسة آلاف سنة إلى الآن، إنكم لتعجبون إن رأيتم موكباً يسير خمس ساعات لا ينقطع، أو جيشاً يمر أمامكم خمسة أيام لا ينفد، فكيف وهذا الموكب يمشي مستمراً متصلاً لم ينقطع سيره ساعة واحدة من خمسة آلاف سنة»[١].

وقال الأستاذ الدكتور حسين مؤنس[٢]- رحمه الله تعالى – مبيناً أن شوقه إلى الكعبة وحنينه إليها أنسياه كل شيء حتى أنهما أنسياه جوعه، فقال:

«توضأت على عجل، وخرجت أجري إلى الحرم في صحبة إخواني ... ولا أصور لك السعادة التي ملأت نفسي عندما وقعت عيني على الحرم أول مرة، لم يكن هناك شيء مما ترى اليوم، كانت هناك أعمال دائرة. وقيل لنا: إنَّ جلالة الملك عبدالعزيز- طيَّب الله ثراه- أمر بتجديد الحرم، وقد رأينا عمالاً يعملون، ولكن صحن الحرم – وهو الرحبة الواسعة حول الكعبة الشريفة – لم تكن حينما أذكر ربع ماهي عليه اليوم وكانت الأروقة الباقية من العصر التركي كما هي اليوم وعليها القباب العثمانية الصغيرة، أما الكعبة فكانت بهية وجميلة وجليلة كما هي

---

(١) "من ذكريات الحج": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١٢٧٩، ١٢٨٠.

(٢) مؤرخ مصري معروف،وأديب. له عدة مصنفات نافعة، توفي سنة ١٩٩٦ رحمه الله تعالى.

اليوم تغطيها الكسوة السوداء الجميلة من المخمل المحلى بآيات القرآن الكريم، وأظن أن منظر الكعبة سيظل بهذا الجمال الفريد في بابه إلى أن يطوي الله الأرض وما عليها.

وأذكر أنني مساء أول ليلة لي في مكة – وكنت في ثياب الإحرام – توضأت وأسرعت إلى الكعبة، وهناك وقفت واجماً أتأمل أجمل منظر في الدنيا، وقد نبهني واحد من الحجاج أن علي أولاً أن أسعى بين الصفا والمروة، فذهبت خلفه، وكان المسعى – إذ ذاك – ضيقاً والناس يتزاحمون فيه، وكانت بين المسعى والحرم مسافة ومبان قطعتها، ثم سعيت سبع مرات في غبطة بالغة، ثم جلست إلى الجانب أتأمل ألوف الناس الذين يتجمعون من أطراف الأرض ليقوموا بالحج، ثم شربت من ماء زمزم، ثم أسرعت إلى الحرم، وهناك صليت ركعتين شكراً لله، ثم طفت بالبيت العتيق سبعاً وأنا ألبي وأكبِّر مع الناس وقد فاضت نفسي بالمسرة[1].

وبعد الطواف جلست تحت أحد الأروقة المحيطة بهذا الصحن الفسيح أتأمل الحرم والناس، وكان حولي ناس كثيرون معظمهم كان يقرأ القرآن الكريم، وأظن أنني ظللت في مكاني هذا حتى الثانية بعد منتصف الليل، ثم نهضت لأعود إلى البيت،

(١) كان عليه أن يأتي بالطواف قبل السعي لا بعده.

وما كدت أخرج من الحرم حتى شعرت بالجوع فما كنت تعشيت، ورجعت إلى البيت فوجدت الحاج موسى الهزان يتحدث مع نفر من أصحابه في رحبة البيت، فحييت وجلست، فقال لي الرجل: لم تأتي للعشاء؟!

-كنت في الحرم، وأنا الآن أموت من الجوع!

فتلفت حوله وقال: ليس لدينا لك طعام ...

بعد لحظة قال: انتظر.

ثم نهض ودخل حجرته، ثم عاد إلي بقطعة من الخبز الجاف وقال:

-ليس لدي إلا هذه خذها فهي تنقذك من الموت جوعاً!!

وأخذتها منه ودخلت الحجرة وجعلت آكلها، وقد بدأ لي أنها أطعم طعام أكلته، مما يدلك حقاً على أن الجوع خير طباخ- كما يقولون – ثم نمت»[1].

(١) "قبل خمسين عاماً كانت حجتي الأولى": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٤/ ١٣٤٥،١٣٤٦.

عرفات
وحنين الناس فيها

فقد أجمع كل من حج وسجل حجته في كتاب عظم أثر عرفات في نفس الحاج، وأن الحنين هنالك يظهر أكمل ظهور وأحسنه، وأن الدموع المسكوبة تفضح حال المحبين، وتُعظم الشوق والحنين، ولا عجب في هذا فعرفات ركن الحج الأعظم، ومقر الغفران وساحة التوبة.

قال ابن جبير – رحمه الله تعالى – متحدّثاً عن يوم عرفة من سنة ٥٧٩:

«اتصل صعود الناس ذلك اليوم كله والليلة كلها إلى يوم الجمعة كله، فاجتمع بعرفات من البشر جمع لا يحصي عدده إلا الله عزَّ وجل.

والقبلة في عرفات هي إلى مغرب الشمس؛ لأن الكعبة المقدسة في تلك الجهة منها، فأصبح يوم الجمعة المذكور في عرفات جمعٌ لا شبيه له إلا الحشر، لكنه إن شاء الله تعالى حشر للثواب، مبشر بالرحمة والمغفرة يوم الحشر للحساب؛ زعم المحقّقون من

الأشياخ المجاورين أنهم لم يعاينوا قط في عرفات جمعاً أحفل منه، ولا أرى كان من عهد الرشيد – الذي هو آخر مَن حجّ من الخلفاء– جمع في الإسلام مثله، جعله الله جمعاً مرحوماً معصوماً بعزته.

فلما جُمع بين الظهر والعصر يوم الجمعة المذكور وقف الناس خاشعين باكين، وإلى الله – عزَّ وجل – في الرحمة متضرعين، والتكبير قد علا، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع، فما رُؤيَ يوم أكثر مدامع، ولا قلوباً خواشع، ولا أعناقاً لهَيْبَة الله خوانع خواضع من ذلك اليوم، فما زال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم إلى أن سقط قرصُها وتمكن وقت المغرب[1]».

قال جوزف بيتس – وهو رجل غربي كافر سبق ذكر قصته – واصفاً المشهد في عرفات:

«لقد كان عدد الحجاج في عرفات كثيراً جداً، وفي حوالي الساعة الواحدة أو الثانية، وهو وقت الصلاة – توضأنا استعداداً لها.

---

(١) "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٠٤.

لقد كان مشهداً يخلب اللب حقاً أن ترى هذه الآلاف المؤلفة في لباس التواضع والتجرد من ملذات الدنيا، برؤوسهم العارية وقد بللت الدموع وجناتهم، وأن تسمع تضرعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة، وتستمر هذه التضرعات وتلك الابتهالات طوال أربع ساعات أو خمس، أي بعد الغروب.

وإنه لأمر يدعو للأسف أن نقارن ذلك بالخلافات الكثيرة بين المسيحيين.

وبعد الوقوف بعرفة يتلقى الجميع لقب «الحاج» وهو لقب يظل الواحد منهم يحمله – بفخر – حتى مماته»[(١)].

وهذا بيرتون[(٢)] يصف عرفات وخطبتها التي كانت تستمر إلى المغرب آنذاك:

«في البداية يتحدّث الخطيب، والجميع في صمت عميق، ثم يرفع صوته ويؤمن الحاضرون، ثم يكثر من التلبية دون فاصل بين تلبية وأخرى، وأخيراً تصل إلى مسامعنا صيحات مطالبة بالرحمة والتطهر من الآثام والبكاء والصراخ، وحتى رفاقي بدوا متأثرين

(١) "رحلة جوزف بيتس": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٣٣٩.

(٢) قد مرّت ترجمته قبل هذا.

فَعَليّ العجوز راح يعتصر عينه ويذرف الدموع، ولم تكن دموعه في هذا الموقف مرتبطة بالدولارات، فأية كمية منها لم تكن قادرة على إنزال الدموع من عينيه حتى لو كانت دموع التماسيح، أما الولد محمد فقد غطى وجهه بطرف ردائه بحكمه»(١).

وقال محمد صادق (٢) يصف عرفات وحال الناس فيها:

«بعد الزوال بساعة من هذا اليوم بلغت الحرارة ٤٢سنتجراد، وقبل الغروب بساعة ونصف منه ركب المحمل المصري ووقف بمحله المعتاد أسفل جبل الرحمة، ثم بعد ذلك بربع ساعة أتى المحمل الشامي فوقف عن يمينه وحولهما الأمراء والعساكر ونحو مائة وخمسين ألف إنسان بل أزيد يلبون ويبتهلون ويتضرعون مع البكاء والنحيب حتى غربت الشمس فأطلق ساروخ(٣) إعلاماً للحاضرين بتمام المناجاة، ولويت أعنة الجمال للنزول إلى منى»(٤).

(١) "رحلة بيرتون": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٥٥٣.

(٢) محمد صادق باشا. فاضل مصري من العسكريين. ولد بالقاهرة سنة ١٢٣٨ وتعلم به وبباريس. وكان من أعضاء الجمعية الجغرافية. قام برحلة استكشافية إلى الحجاز براً عن طريق الوجه إلى المدينة، ووضع خريطة لذلك الطريق. له عدة رسائل وضع فيها تحقيقاته، وله نظم، ألقى محاضرات عن بلاد الحجاز. توفي بالقاهرة سنة ١٣٢٠ رحمه الله تعالى. انظر: "الأعلام" ٦/ ١٦١.

(٣) أي صاروخ.

(٤) "كوكب الحج": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٦٤١.

وقد تحدّث الأستاذ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى عن شعوره في عرفات وشوق الحجاج وحنينهم، فقال:

«بلغنا عرفات في وقت السحر فألفينا الخيام قد ضربت لنا وفُرشت فنزلنا فيها، ولما طلع النهار وجدنا أنفسنا بالقرب من مسجد الصخرات حيث كان موقف النبي ﷺ، ورأينا أكثر الحجاج في هذا الجانب من بسيط عرفات، وسائر الجوانب والأجواز خالية وفي بعضها قليل من الحجاج، ولبعض حجاج الأقطار مواضع خاصة يقفون فيها كل عام، ويقف كثير من عرب الجزيرة في جبل الرحمة ويصعده كثير من حجاج الأقطار الأخرى.

وكانت خيام الشريف في موضعها المعتاد من وسط ذلك البسيط، وكان السبب في بعدها عن مسجد الصخرات وموقف الإمام أن يسهل على أي فريق من الحجاج الوصول إليه للزيارة أو الشكوى في زمن قصير.

قد فاتنا لقلة الحجاج رؤية منظر من أعظم المناظر المؤثرة في النفس، المحركة لشعور الخشوع والعبودية في القلب، وهو رؤية تلك البقعة الشريفة غاصة بالشعوب الوافدة من جميع أقطار الأرض، ملبين داعين، باكين خاشعين، يجأرون إلى الله- عزَّ وجل- على اختلاف لهجاتهم الناشئة عن اختلاف لغاتهم،

يرددون الأذكار المأثورة كانتا دون ما رأيت في النوم، والفرق يسير، فهذه الرؤيا من أوضح الرؤى وأجلاها تأويلاً، وهي حجة على الذين ينكرون الرؤى الصادقة.

الحالة الروحية في الوقوف والنفر

إنّ الحالة الروحية لا تبلغ الكمال في عرفات ظاهراً وباطناً إلا في أصيل ذلك اليوم العظيم، ففي أول النهار يعرض لأكثر الناس شواغل تشغل حواسهم وجوارحهم وأفكارهم، منها ضروريات الأكل والشرب، ومنها رؤية المناظر الجديدة من تلك البقعة الجامعة لشعوب كثيرة وما يحيط بها من الجبال، فهذه المناظر تشغل كثيراً من الناس بصورتها وشكلها – في أول العهد برؤيتها – عن معناها وحكمة كون السير إليها والوقوف فيها عبادة لله – تعالى – ، وفي أثناء النهار يأكل الناس طعامهم ويستريح أكثرهم في خيامهم ومضاربهم أو في ظلال الجبال ولاسيما إذا كان الحر شديداً، فإذا جاء وقت العصر جمعوا متاعهم وشدوا رحالهم وفرغوا قلوبهم للذكر والدعاء، وازدحموا عند

موقف الخطيب من جبل الرحمة حرصاً على سماع الخطبة، أو الاشتراك مع الألوف من إخوانهم في التكبير والتلبية.

قضينا جُلَّ نهار عرفة بذكر الله والدعاء، وتيسر لي – والحمد لله – الاغتسال فيه، وصلّينا الظهر والعصر جميعاً في مسجد الصخرات، ورأينا هنالك خطيب عرفة وهو نائب الشرع بمكة وقد صعد بناقته فاستوى على تلك الصخرة من جبل الرحمة ذات التاريخ الإسلامي العظيم، وقد أحاط به الناس وازدحموا من حوله يسمعون منه أحكام المناسك، ومن دونه ومن فوقه في الجبل ألوف من الناس يشاهد بعضهم بعضاً ويراهم من في السفح ومن في بسيط عرفات كلها؛ لأن الجبل مدرّج يشبه ما يتخذ في بعض المدارس الكبرى من المقاعد ذات الدّرُج المقوسة، وكلما لبَّى وكبَّر الخطيب لبَّى من حوله وكبَّروا وأشاروا بأطراف أرديتهم البيضاء أو مناديلهم، ويتبعهم في التلبية والإشارة كل من هنالك من قمة الجبل إلى سفحه، فيلبي سائر الناس ويكبرون، فيتموج بأصواتهم الهواء، وترتج الأجواء، حتى تصل إلى عنان السماء، بل تخترقها حاملة ذلك الذكر والثناء والضراعة والدعاء إلى من مستوي إلى عرشه المجيد، وهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، فيا له من موقف ما أعظمه! وما أصدق من شبهه بيوم القيامة، وقد يكون التشبيه على أكمله في ذلك المساء، فإنه وقت يكون فيه لكل مؤمن من الشغل بنفسه والتوجه إلى ربه ما لا يعهد مثله في وقت

من أوقات حياته، يشعر – والناس محيطون به من كل جانب – بأنه في خلوة لا يشغله فيها عن ربه شاغل، ولا يشوب خشوعه له وبكاءه من خشيته وسروره بمناجاته رياء ولا سمعة، بل لا يكاد يخطر بباله أنَّ أحداً هنالك يرى أحداً، فما أعجب شأن هذا الاجتماع العظيم الذي يجمع كل من شهده – بإيمان وعرفان – بين مزايا عبادة الخلوة وعبادة شعائر الاجتماع، بل أقول: إنَّ له مزية على سائر الشعائر لا يعرفها إلا من ذاقها»[1].

وهذا الأستاذ محمد لبيب البتنونيّ – رحمه الله تعالى – يصف حال الناس في عرفات فيقول:

«يقول الكل: «لبيك اللهمَّ لبيك» بصوت يكاد يصعد بالأحشاء إلى عنان السماء، فيا لها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرة عن أنفسهم، فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة، وتغليب وجدانهم على وجودهم، وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم، حتى كأنهم في لباسهم الأبيض الطاهر النقي ملائكة لله في هذا الوادي الذي يردد أصواتهم وابتهالاتهم إلى الملك المعبود، إلى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فإذا تراجع إليهم صدى هذا الصوت أحدث في نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم وتضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الأرباب ومالك الرقاب،

(١) "رحلة الحجاز": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٨٨٥-٨٨٩.

هنالك تسوخ النفوس في ظروفها وتنكمش الجسوم على هياكلها من رهبوت هذا الملكوت، وحشاشات القلوب تتصبب من آماق عيونهم أسفاً على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب!! وتتلاحق الأرواح إلى التعلق بأستار رحموت رحمانها، تائبة مستغفرة ضارعة إليه تعالى بقبولها في ساحة غفرانه، مؤملة في عظيم كرمه وإحسانه ولا تلبث أن تتراجع وهي على يقين من قبولها في ساحة الرحيم الرحمن، وقد وقر في نفوس ذويها حب الفضيلة وبغض الرذيلة، وحسب الإنسان من فضيلة الحج هذه الحسنة الجميلة»(١).

وقال الأستاذ د. محمد حسين هيكل – رحمه الله تعالى:

«وقمنا يسعدنا النسيم الرقيق إلى سيارتنا لنُفيض كما أفاض الناس، وانطلقت بنا السيارة نحو المشعر الحرام، وإن في نفسي إلى عرفات لهوى يدعوني إلى العودة إليه والمبيت في مضاربه والوقوف به ملبياً شاكراً، داعياً مستغفراً، ذلك موقف لم أعرف مثله في حياتي كلها روعةً وسمواً بالنفس في صدق وإخلاص إلى الله – جلَّ شأنه–، ولم أعرف مثله في حياتي كلها دعوة إلى إخاء المؤمنين ليتحابوا بنور الله بينهم»(٢).

---

(١) "الرحلة الحجازية": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٢/ ٨٠٧.

(٢) "في منزل الوحي": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١١٦٤.

وقال الأستاذ علي الطنطاوي – رحمه الله تعالى –:

«لما كانت ليلة وقفة عرفة أخذت سيول الحجاج تخرج من مكة، وبت في مكة، وقد خلا الحرم من ذلك الازدحام، فأمضيت ليلة أمام الكعبة، عراني فيها من الأحوال وورد عليّ من الواردات مثل الذي عراني وأنا قادم بالطيارة، وكانت هذه هي اللمحة الثانية التي أحسست فيها أني في الحج، والثالثة وأنا قادم على عرفات وقد بدا فيها بحر من الخيام البيض لا أول له ولا آخر، والناس من كل لون وجنس، ينادون بكل لسان نداءً واحداً، يدعون رباً واحداً، قد هجروا بلادهم وجاؤوا، لا يريدون التفرج ولا السياحة ولا الكسب ولكن يريدون رضاء الله، وقد يجتمع في بلاد الغرب أكثر من هؤلاء عدداً، ولكنهم يجيئون بالدنيا وللدنيا، وهؤلاء تجردوا من دنياهم كلها لما تجردوا من ثيابهم، وأقبلوا على الله متساوين متشابهين، لا تميز منهم أميراً من أجير، ولا كبيراً من صغير، إنه مشهد لا تراه عين البشرية أبداً إلا في عرفات، ولو لم يكن في الإسلام من فضل على النِحَل والأديان إلا هذا لكفى، ولجعل كل عاقل منصف مسلماً.

ولقد أصابتني رقة في قلبي لم أعهدها قط فيما سلف من أيام، وهطل الدمع من عيني على رغمي، وقلت والبكاء يخنقني:

يارب، أنا لا أُدِلُّ بعمل صالح[1]، وإنَّ ذنوبي قد سودت صحيفتي، وأنا لا أستحق الدخول عليك، ولكن الكريم يا رب يقبل مَن يكون مع الضيف إكراماً للضيف، وأنت أكرم الأكرمين، فهل تطرد من بابك من جاء مع ضيوفك؟»[2]

(١) أي لا أتقرب إليك بعمل صالح.

(٢) "من ذكريات الحج": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١٢٨٦، ١٢٨٧.



الشوق والحنين
إلى مدينة الرسول الأمين
وزيارة مسجده المبارك
وقبره الشريف،
عليه أفضل الصلوات والتسليم



الشوق إلى المدينة النبوية المنورة قد يؤدي إلى المجاورة

ذكر الشيخ الورثيلاني أنه لما حج عزم على المجاورة في مدينة رسول الله ﷺ فقال:

«لما دنا وقرب السفر من المدينة المشرفة ظهر لي ترك السفر والرجوع في ذلك إلى الوطن ليزول عنا الاشتياق بمجاورته ﷺ فعزمت على المجاورة، فذهبت لخيمتنا فأعلمت أهل الدار بذلك – أعني النساء – وقد أصابهن مرض شديد كاد بعضهن أن تصل إلى السياق[1] وهي الحرة الجليلة الكريمة الطيبة النخبة الشريفة المتطلبة فإنها تقرأ نحو الربع[2]، وتحفظ بعض الأذكار، وكانت تحفظ الصغرى للشيخ السنوسي[3] وكذا بعض الرسالة لابن أبي زيد[4]

---

(١) أي إلى سياق الموت.

(٢) أي من القرآن.

(٣) أي العقيدة الصغرى للشيخ السنوسيَ، المسماة "أم البراهين"، والسنوسيّ هو محمد بن يوسف بن عمر الحسني، أبو عبدالله، ولد سنة ٨٣٢، وكان عالم تلمسان في عصره وصالحها، وله تصانيف كثيرة، توفي سنة ٨٩٥ رحمه الله تعالى. انظر: "الأعلام": ٧/ ١٥٤.

(٤) هو العلاّمة القدوة الفقيه، عالم أهل المغرب أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المالكي، ويقال له: مالك الصغير، وكان أحد من برز في العلم والعمل، وكان ذا بر وإيثار، وإنفاق على الطلبة وإحسان، توفي سنة ٣٨٦ رحمه الله تعالى. انظر: "سير أعلام النبلاء": ١٧/ ١٠-١٣.

في غاية الأدب والفهم والفطانة بنت الشيخ الفقيه النزيه الفاضل الكامل صاحب الفضائل الفواضل الشريف تحقيقاً سيدي عبدالله بن رحاب – وقد حج معنا – فلما أشرفت على الموت وجدت عذراً عند الحجاج إذ لا يستطيعون مفارقتي، واسمها عويشة، وكذا أختها فاطمة زوج ابني، والأخرى زوجتي بنت الشيخ الفاضل المحقق المتكلم العالم الصالح خطيب وقته وفريد عصره– لاسيما في أصول الكلام – سيدي المسعود بن عبدالرحمن، جدها من قبل أبيها[١].

نعم لما ظهر ذلك عند الركب اجتمعوا ونادوا بالويل فقالوا: والله إن أقام أقام جميعنا، فلما رأيت شدة اتصالهم بنا وكثرة عويلهم علينا وقالوا: إن خصه ما يوصله[٢] جمعنا له ما يبلغه إلى وطنه بل ما يغنيه علماً منهم بأنَّ الذي حملني على الإقامة قلة الزاد لاسيما وإنَّ الشيالة أعني أصحاب الإبل هربوا، فقلت: والله لا أقبل درهماً من أحد إذ لا أحمل المنّة، وغاية أمري أقبل السلف لأني مليء في بلدي، وعند ذلك ذهب سيدي عبدالله بن رحاب وسيدي أحمد بن حمود وكاتب الحاج ابن قانة شيخ العرب الذي هو محبنا سي عيسى فاشتروا لي ثلاثة جمال لحمل الأهل.

---

(١) المصنف يتحدث عن زوجته اللتين صحبهما في الحج، لكن في سياقه ركاكة وصعوبة.

(٢) أي احتاج إلى ما يوصله إلى بلاده.

وعند ذلك ظعن الركب المصري والمغربي فتأخرنا عنهم لشراء حوائج الإبل وعلفهم؛ لأن ابني محمداً ذهب لذلك مع ابن عمنا سيدي عيسى الشريف فلم يبق إلا خيمتنا فرفعناه وركب الأهل لأنهم ودعوا النبي ﷺ ليلاً فلما انفصلوا في آخر الركب خفنا عليهم غير أن الله حفظهم، وأنا وبعض الأصحاب منتظرون ولدي، وحين وصوله إلينا ذهبت لأودعه ﷺ مع من كان معي من الحجاج.

وعظم علي أمر التوديع حتى علا صوتي وارتفع، وكاد أمري إلى العويل بل أنوح عليه نياح الثكلى العديمة لولدها، وكيف لا وهو أن فراقه أعظم المصائب، ولم أنفصل عنه إلا بصبر عظيم وهول جسيم وحزن شديد فلم أملك نفسي عند ذلك فعظمت المصيبة وعزَّ الصبر، غير أني تسليت بانتقاله من دار الدنيا وفراق أصحابه.

ثم خرجنا منه على أصلح حال ومنّة عظيمة – مع ما كان في القلب من مرض البَيْن[1] وحرقة واضطرام الفؤاد بسببه – مسرعين في أزقة المدينة إلى أن خرجنا من الباب الذي يخرج منه الحجاج، وإذا بالناس منها يقولون: إنَّ العرب يضرونكم ويؤذونكم لاسيما إني تخلفت منتظراً لحمل الفول[2] على الجمل، فركب ولدي وكذا سيدي عيسى المذكور.

---

(١) أي الفراق.

(٢) الفول كان طعام الإبل.

ثم لحقت بالأخ في الله سيدي محمد المحفوظي يريد المجاورة والإقامة بها، فألححت عليه بالذهاب فامتنع، فزجرته وقلت له: تترك زوجتك خالية عن الزوج؟ فأجبني بأني بعثت لها ما تنفقه حتى أرجع وإن اختارت التزويج فلها ذلك وكذا البقاء، ثم قهرته على المشي معنا فقال: أعاهدك أني أقدم بعدكم من الينبع إلى الصعيد وإلى مصر، فلم أقبل منه بل ذهب معي إلى أبيار علي، ثم فرَّ من هناك إلى الآن»[1].

وقال ابنُ رشيد الفهري[2] – رحمه الله تعالى – واصفاً الشوقَ إلى طيبة عندما حج سنة ٦٨٤:

«رحلنا من العُلى غدوة يوم الأحد السادس عشر من ذي قعدة، وقد تضاعفت الشوق وبرَح الوَجْد، فسرنا على اسم الله تعالى منزلاً منزلاً إلى أن بلغنا وادي القُرى[3]، وأكثره خراب، فتجاوزناه والأرواح تكاد تفارق الأجساد شوقاً إلى طيبة.

(١) "الرحلة الورثيلانية": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ٣٨٥-٣٨٨.

(٢) أبو عبدالله محمد بن عمر بن رُشيد الفهريّ السبتيّ المغربيّ. احتفل في صغره بالأدبيات وبرع فيها، وارتحل إلى فاس ثم تونس والإسكندرية، وحج وجاور بمكة والمدينة ونزل بمصر. له مصنفات كثيرة. وكان فاضلاً حسن الأخلاق. توفي سنة ٧٢١ رحمه الله تعالى. انظر: "الوافي بالوفيات": ٤/ ٢٨٤-٢٨٦.

(٣) صار يدعى، بَعْدُ وادي العلى، ووادي القرى وادٍ بين المدينة والشام فيه قرى كثيرة، وقد كانت قديماً منازل ثمود وعاد وبها أهلكهم الله تعالى، وآثارهم إلى الآن باقية.

وفي عشي يوم السبت الثاني والعشرين تلقانا قريب العصر أهل المدينة، على ساكنها الصلاة والسلام، مبشرين بالوصول إلى حضرة المصطفى الرسول، وجالبين من تمر المدينة ما يتحفون به القادمين ملتمسين رِفْدهم، وقد صنعوا عِصِيّاً في أطرافها أوعية صغار، فيجعلون فيها شيئاً من التمر ويناولونه أهل القباب المسترة من بين ستورها، فيعطي كل أحد ما تيسر له من الرفد، ويدفعون إلى الركبان والمشيان أيضاً من ذلك على حكم التحفة والهدية، فيحسن كل على قدر وُجْده، ويقسمه الناس بينهم متبركين مستبشرين، ولقد رأيتهم يُحنِّكون به الأطفال الصغار التماساً للبركة، وحق لهم ذلك.

وقد كدنا من الطرب نطير، وعاينّا مرأى بديعاً ما له في الوجود من نظير، وحين دنونا من جدران المدينة نَفَحَتْنا روائح كأنها العبير، فمن الناس من أقدمت به أَرْيَحِيّة[1] الشوق فتقدم، ومنهم من تأخرت به الهيبة فأحجم وما أقدم، حتى سكنت منه الحال، وتأهَب لمشاهدة ذلك الجلال.

وكان نزولنا على اليُمن والبركة بظاهر طَيبة – شرّفها الله – وقت الضَحاء من يوم الأحد الثالث والعشرين لذي قعده، فأخذ

(١) الأَرْيحية: النشاط إلى المعروف والبر والارتياح له. انظر "لسان العرب": روح.

الناس منازلهم واغتسلوا وتجمّلوا للقدوم على الضريح الطاهر، فللّه ذلك اليوم ما أعظمه وأسعده وأكرمه، أَعْزِزْ به من عيد سعيد فاق كلَّ عيد، فهو خير أيام العمر، وأسعد أوقات الدهر، وتاريخ مولد السعادة، ومفتاح الحسنى والزيادة.

ثم دخلنا المدينة- شرفها الله – للسلام على النبيّ ﷺ ، وقد ملأ السرور قلوبنا، وملك التوقير جوارحنا، واستعملنا سنة السلام وحيّيناه ﷺ بتحية الإجلال والإعظام، ووقفنا حيث حده العلماء من ضريحه الكريم، المخصوص بالتشريف والتعظيم، وقضينا المستطاع من أدب التحية، وكادت تغلب الوقارَ الأَرْيَحِيَّة.

ثم قضينا حق السلام على خليفة رسول الله ﷺ الصِّديق، ثانيه في الغار والعريش والطريق، ثم على أمير المؤمنين الفاروق ثالثهما في المدفن الكريم المقدس، وتالي أبي بكر في المكانة، الذي اختصه بحمل أعباء الخلافة بعده، وفوض إليه ملقياً مقاليد تلك الأمانة، رضي الله عنهما وجزاهما أفضل ما جزى صاحبي نبي عنه»[1].

---

(١) "ملْ العيبة بما جمع بطول الغيبة": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٢٩، ١٣٠.

فلما حان موعد السفر، وفراق مدينة رسول الله ﷺ قال ابن رُشَيد الفِهريّ – رحمه الله تعالى – مبينا عظيم أسفه:

«كانت إقامتنا بالمدينة – شرفها الله – يوم الأحد والاثنين والثلاثاء وليلة الأربعاء، وانصرفنا غدوة يوم الأربعاء السادس والعشرين لذي قعده، صلّينا الصبح بذلك المحل الكريم، راجين فضله العميم، وودعناه وما ودعناه، وأودعناه الأرواح، وسرنا بالأشباح، والضلوع تتقد، والدموع تطرد، ولسان المقال ينشد:

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي فروحي عندكم أبداً مقيم

ولسان الحال يردد:

محبتي تقتضي مقامي وحالتي تقتضي الرحِيلا»[1]

ثم قال رحمة الله تعالى:

«... كان وداعنا للنبيّ ﷺ يوم الأحد الثامن والعشرين لذي حِجَة، وقد أودعناه الأرواح ورحنا بالأشباح:

أودِّعكم وأُودِعكم جِناني وأنثرُ عَبرتي نثر الجمان

وقلبي لا يريد لكم فراقاً ولكن هكذا حكم الزمان

(١) "ملء العَيْبة": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ١/ ١٣٣.

ولله درّ القائل:

لو كنتَ ساعةَ بينِنا ما بيننا وشهدت حين نكرر التوديعا[1]

لعلمت أنَّ من الدموع محدّثاً وفهمت أنَّ من الحديث دموعا

والناس داعون وقائلون: «اللهمَّ لا تجعله آخر العهد بنبيك».

ولمّا خرج الناس عن المدينة لم يزالوا يعطفون رؤوسهم إليها، داعين ومسلمين حتى غابت عنه: اللهمَّ لا تجعلنا ممن نفته المدينة، واربط على قلوبنا بالصبر، وأنزِلَنْ علينا السكينة، وكن لنا صاحباً في السفر، ومُنَّ علينا بالوصول إلى الأهل سالمين كما مننت بقضاء الوطر، ولا تجعله آخر العهد بزيارة سيد البشر»[2].

وهذا الأستاذ محمد بهجة البيطار الدمشقي[3] يقول معبراً عن حاله في حرم المدينة:

(١) ساعة بيننا: أي ساعة فراقنا.

(٢) المصدر السابق: ١/ ١٥٤،١٥٥.

(٣) ولد سنة ١٣١١. درس في دمشق في مدارس وعلى يد المشايخ. تولّى عدة وظائف منها عضوية مجمع اللغة في دمشق وبغداد. ودرّس في مدارس في دمشق والحجاز. وصار عضواً في المحكمة الشرعية الكبرى بمكة ونائباً لرئيس هيئة المراقبة القضائية، ومفتشاً للعلوم الدينية ومدرساً للتوحيد. وأسس دار التوحيد بالطائف. وكانت له رحلات إلى عدة بلدان. توفي سنة ١٣٩٦ رحمه الله تعالى. انظر: ترجمته مفصلة في مجلة "حضارة الإسلام": العدد الرابع لسنة ١٣٩٦.

«وبعد الاغتسال وتغيير الثياب، ذهبت قاصدا المسجد النبوي وهو يصحبني، فقطعنا العنبرية والمناخة وسوق المدينة حتى انتهينا إلى باب الحرم، وهناك أثر فيّ الخشوع، واغرورقت عيناي بالدموع، واشتد خفقان قلبي حين دخولي على النبيّ ﷺ»[(1)].

وقال الشيخ علي الطنطاوي – رحمه الله تعالى:

«خفق قلبي خفقاناً شديداً، وخالطني شعور بالهيبة من دخول المدينة والسلام على رسول الله ﷺ على ما في نفسي من الفرح والسرور، وجعلت أتأمل المدينة وقد دنونا منها حتى لقد كدنا نصير بين بيوتها، وأحدّق بالقبة وتحتها أفضل مَن مشى على الأرض، وقد شخص بصري، وكدت لا أرى ما كان حولي لفَرْط ما أحس من جَيَشان العواطف في نفسي، حتى غامت المشاهد في عيني، وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء، وأحسست كأني قد خرجت من نفسي، وانفصلت عن حاضري، وذهبت أعيش في عالم طلق لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان.

ونظرت فإذا السيارات أما باب السلام، فاشرأبت الأعناق، وبرقت الأبصار، ودمعت العيون، وخفقت القلوب، وتعالى الهتاف ونزلنا ندخل مسجد الرسول ﷺ وكانت حال لا سبيل إلى

(1) "الرحلة النجدية الحجازية": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ٩٣٧.

وصفها قط، اللهمَّ اجعل لنا إلى تلك البقاع التي شرفتها بمحمد ﷺ معاداً»[1].



(١) "إلى أرض النبوة": نقلاً عن "المختار من الرحلات الحجازية": ٣/ ١١٢٩.

خاتمة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد طوفت بك – أخي القارئ وأختي القارئة – في رياض المحبين، وطرقات المشتاقين، وعرصات أهل الحنين، من أهل الماضي والحاضر، يستوي منهم أهل البوادي والحواضر، فإن الشوق والحنين مركوز في الفِطَر والطباع لا يختلف فيه من كان حاضراً أو بادياً، ليناً أو جافياً.

وكان الغرض من تأليف هذه الرسالة هو بيان عظم وجمال هذه الشعيرة حين تكون مخفوفة بعواطف الشوق، محاطة بجمال الحنين والتَوْق، وعظيم أثرها آنذاك، وذلك لأن أكثر الناس قد خمدت عواطفهم في هذا العصر المادي القاحل، فإن لم تنعش هذه الديار الطاهرة تلك العواطف الخامدة الهامدة فمعنى ذلك أنَّ في المرء خللاً، وفي قلبه مرضاً، هو بأمس الحاجة لمعالجته بمثل هذه الرسالة ومثيلاتها، عسى أن يلين منه ما صلب وقَسِي، ويقرب منه ما نأى وقَصِي، والاعتصام بالله والانطراح على بابه مجرب

مفيد، والالحاح بسؤاله أن يلين منا القلوب ذو أثر أكيد، وفقنا الله وإياكم لمرضاته، والشعور بحلاوة عبادته ومناجاته، وإدامة التردد إلى مشاهد الحجاز الفاخرة والمشاعر الباهرة الطاهرة، التي من حُرِمَها حُرِمَ الخير كله، والله تعالى الموفق في كل حين، والصلاة والسلام على سيدنا سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.



فهرست المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- «الأعلام»: خير الدِّين الزركلي (ت ١٣٩٦).
نشر دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامسة ١٩٨٠.

٣- «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر»: محمد بن علي المرادي.

٤- «صحيح الإمام البخاري»: نشر دار الجيل. بيروت.

٥- «مجلس في فضل يوم عرفة»: ابن ناصر الدِّين.

٦- «المختار من الرحلات الحجازية»: لواضع هذه الرسالة.
نشر دار الأندلس الخضراء للنشر والتوزيع – جدة – الطبعة الأولى سنة ١٤٢١.





الفهرس

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة	٧
الشوق والحنين يبدآن من بلد الحاج....................	١٥
أثر الشوق والحنين في تخفيف متاعب الحاج وشدائد السفر .	١٧
أثر الإحرام والتلبية في إحداث الشوق والحنين	٢٣
الشوق والحنين عند رؤية حدود الحجاز...............	٢٧
الشوق والحنين إلى مكة المكرمة والبيت العتيق..........	٣١
أمثلة على الشوق والحنين إلى الحرم المكي الشريف.....	٣٧
أثر رؤية الكعبة والصلاة فيها في تهييج الشوق والحنين .	٤٧
عرفات وحنين الناس فيها..............................	٥٣
الشوق والحنين إلى مدينة الرسول الأمين وزيارة مسجده المبارك وقبره الشريف، عليه أفضل الصلوات والتسليم.	٦٥
خاتمة	٧٧
فهرست المصادر والمراجع..............................	٧٩
الفهرس...	٨١